الهدنة الفلسطينية - الاسرائيلية... جزءاً من هدنة أهلية فلسطينية أم مدخلاً الى بناء وطني داخلي؟

وضاح شرارة *

■ تحافظ الهدنة الفلسطينية الموقتة عن الأعمال العسكرية، وهي المحطة الاولى منذ «خريطة الطريق»، على الالتباس الاساسي في الحال الفلسطينية، او مرض هذه الحال. فالسلطة، او الوزارة، هي صاحبة اعلان الهدنة، بعد مفاوضة المنظمات المسلحة ورضاها. ولكن السلطة ليست صاحبة الاعمال العسكرية. ولا يعود اليها ولا الى قواتها التقيد بوقف اطلاق النار، بل يعود الى المنظمات المسلحة. وهذه اعلنت وقف اعمالها العسكرية مشترطة شروطاً كثيرة، معظمها على السلطة. وناطت بالسلطة تحصيلها من قوة الاحتلال. فإذا اخفقت السلطة في وساطتها، لم يرتد اخفاقها على دولة الاحتلال وحدها. وأصاب ربما في المرتبة الاولى، السلطة، وقوّض وساطتها، ودالتها الوطنية، وطعن في قوة تمثيلها.

ولم تتكتم المنظمات المسلحة على السبب في رضاها المشروط بالهدنة، وهي لا تكف عن التذكير به، فهي خطت خطوتها هذه، على كره شديد منها، تلافياً لاقتتال اهلي فلسطيني، طرفاه المنظمات وقوات السلطة. وينطوي تعليل الهدنة اليوم على حمل الانتفاضة الثانية، طوال السنتين وتسعة اشهر، على اتفاق المنظمات والسلطة من قبل. فلولا هذا الاتفاق لما استبعد الاقتتال الى حين الهدنة، ولما مضت المنظمات على اعمالها وعملياتها، ولما استمرت الانتفاضة على الوجه الذي استمرت عليه. والسلطة التي اتفقت مع المنظمات المسلحة على الانتفاضة الثانية، ورعت دوامها واستمرارها، هي تلك التي تربع على رأسها ياسر عرفات، ولا يزال متربعاً على شطر منها. ويعزو بعض قادة المنظمات رضوخهم للهدنة، من وجه ثان، الى إلحاح مصري. وقد يفيد رأي القادة ان الإلحاح عامل جديد كذلك، ولم يسبق أن كان على هذا القدر من الحث والإلزام.

فينبغي الخلوص الى ان تولي محمود عباس رئاسة الحكومة الفلسطينية، خلافاً لتقليد ياسر عرفات الرئاسي وجمعه «الرئاستين» في نفسه وصلاحياته، والوساطة المصرية، كانا داعيين راجحين الى قبول المنظمات المسلحة الإجراء الاول من اجراءات الخطة الرباعية العتيدة. فإذا ضعف الداعيان هذان - وظهر ان حكومة محمود عباس غير قادرة على خوض حرب على المنظمات المسلحة، ورجعت الرئاسة المصرية عن إلحاحها او تراخت فيه - لم يكبح جماح المنظمات المسلحة الضالعة في الهدنة، وهي صاحبتها الاولى، السلطة «تعالج» الانتهاكين الاولين وحدهما، ولم تندد بهما، ولم تلزم نفسها حماية الهدنة. فلما قامت قوة الاحتلال بقتل مقاتل من «الكتائب»، ذكرت المنظمات المسلحة بتحفظاتها، واشتراطاتها على الهدنة وعلى وساطة السلطة. وليس هذا الموقف الا صدى لإخراج المنظمات نفسها، وهي الوصية على «مجتمع» الفلسطينيين والقوامة عليه، من «الدولة» وسلطتها، وتحميلها التبعة وحدها عن الهدنة ووقف النار.

وهذا قرينة جديدة، في اعقاب ما لا يحصى من القرائن، على نهج متناقض يستحيل ألا يؤدي الى الانهيار السياسي والاجتماعي والدوران في الحلقة المفرغة نفسها. فقصر دور السلطة الفلسطينية على التوسط بين المنظمات المسلحة وبين قوة الاحتلال الاسرائيلية، يضعها عاجلاً وليس آجلاً موضع التهمة والانحياز الى الاحتلال، ويسوغ الحرب عليها. فإذا لم تكن الهدنة خطوة اولى على طريق بناء الدولة الوطنية بناء داخلياً - ويقتضي هذا دخول المنظمات والقوى «المجتمعية» في كيان الدولة القانوني والمشترك، والتسليم لها بالمفاوضة والتحكيم وتولي العلاقات الخارجية الى احتكار الأمن الداخلي - استحال ان تؤدي «خريطة الطريق» الى الدولة الفلسطينية «القابلة للحياة».

وتذرع المنظمات المسلحة بضعف السلطة الوطنية، وتراخي سياستها بإزاء الاحتلال، الى رفض توكيلها ببناء الدولة الوطنية، والتخلي لها تالياً عن القوة العسكرية والامنية، لا بد من ان ينجم عنه الازدواج المزمن والمقيم، والاقتتال الاهلي افقه الماثل و«المحتوم». وهو ذريعة الى رفض الدولة الوطنية، والكيان السياسي والحقوقي المنفصل الذي يلازمها. وهذا وجه من تراث عربي «سياسي» (يقوّض السياسة على معناها غير الاهلي وغير الامبراطوري او السلطاني) عريق.

فالجماعات الحاكمة في «الدول» العربية المشرقية لا تستغرق الدولة، وأبنيتها السياسية والادارية والامنية، سلطتها كلها. فهي تحكم فعلاً، الى حكمها الدولة وأبنيتها الظاهرة والصورية، بواسطة «حزب قائد» يعلو الدولة، ويتستر على احتياط قوة يرجح غلبة الجماعة الحاكمة، ويثبتها من وراء ظهر القانون والانتخاب والهيئات المنتخبة والادارة. فعلى رغم تربع القوة المسيطرة في سدة الدولة القانونية، تحتفظ الجماعة الحاكمة بقوات غير قانونية، عسكرية او شبه عسكرية او اهلية، تستند اليها، وتستظهر بها على المحكومين و«الرعية».

وعلى هذا المثال ندبت السلطة الايرانية مسلحين غير نظاميين الى قمع التظاهرات الطالبية والمدنية طوال النصف الثاني من حزيران المنصرم. وإلا كان عليها ان تعلن حال الطوارئ لتسوغ اعتقال اربعة آلاف متظاهر، على ما لاحظ بيان طالبي ثاقب. وتحصن البعث الصدامي العراقي بمنظمات امنية وعسكرية «خاصة»، محلية عشائرية ومذهبية، انتهى به الامر الى حل الدولة فيها، هذا التحصن ذروة من ذرى التراث «السياسي» العربي. و«الأخوة» السورية، تنهض على نهج الازدواج هذا، وهو درع الطبقة المسيطرة وترسها بوجه يقظة قوى اجتماعية وسياسية معارضة، وبوجه إرساء الدولة على عموم المواطنية والمساواة فيها.

وينم استطلاع رأي فلسطيني بهذا التخبط، ويصوره صورة أمينة. فعلى حين يؤيد ٥٦ في المئة «خريطة الطريق»، ويميل ٧٠ في المئة الى دمج الاجهزة الامنية، ويدعو ٦٥ في المئة الى التوقف عن التحريض على اسرائيل، ويرجو ٧٣ في المئة اعلان هدنة سنة كاملة مع اسرائيل، لا يقبل غير ٣٦ في المئة اعتقال منتهكي الهدنة، ولا يرضى غير ٢٥ في المئة قطع التمويل عن الجماعات المسلحة، ويحسب ٦٥ في المئة ان الاعمال المسلحة حققت ما لم تحققه المفاوضات («النهار»، في ١ تموز). فالمستفتون يتابعون المنظمات المسلحة على آرائها، وعلى نقيض هذه الآراء وضدها.

وحسبان محمود عباس (وكوندوليزا رايس) ان الازدواج الفلسطيني العربي انما يعالج باستدراج المنظمات الى المشاركة في السلطة (على مثال لبناني، على زعم رائج وضرير)، واستدراج الناشطين الى بيع سلاحهم (وولائهم؟ انظر اعلاه الرأي في قطع التمويل) والاندماج في مرافق اقتصادية واجتماعية مدنية - على وجاهته العملية الظاهرية، يقلل ربما من ثقل النازع الفلسطيني الاهلي الى الجمع بين ارادتين او رغبتين متدافعتين. فالانحياز الى ارادة سياسية مشتركة، وتقديمها على الارادة الاهلية المقاتلة والمتقاتلة، يتصوران في صورة تخل عن «المقاومة»، ومهادنة ضعيفة للعدو. وهذا يشبّه او يراد تشبيهه على العراقيين والايرانيين والسوريين، وعلى «الشارع العربي» من ادناه الى اقصاه. والابتلاء الفلسطيني ان الفلسطينيين بمنزلة القلب من الصورة العربية هذه.

* كاتب لبناني.

إيران ١٩٧٩ غيرها في هذه الأيام

عمر كوش *

■ كان المأمول من مجيء محمد خاتمي الى رئاسة الجمهورية الإيرانية استبدال الشمولية بصيرورة جديدة، تتسم بقراءة واضحة لمتغيرات العالم المتسارعة، وتمتاز بإفساح المجال أمام قوى المجتمع بالظهور والتعبير عن مكنوناتها وفاعلياتها. لكن القوى الحية في إيران لم يكن في وسعها ايجاد السبل القادرة على وضع استراتيجية تهدف الى تحقيق النمو الاقتصادي وفك الارتباط مع التبعية، والتعايش والتسامح بين مختلف الجماعات المذهبية والاثنية، لأن هذا الأمر يتطلب المزيد من الحريات وإطلاق المبادرات الكفيلة بتحقيق الديموقراطية على مختلف الصعد والمجالات، ولا شك في أن المخاض العسير لإصلاحية خاتمي، كشف مدى الصعوبات والمقاومات الايديولوجية المختلفة، التي توظف الدين توظيفاً أداتياً، وخصوصاً في أوساط التيار المحافظ.

لكن إيران اليوم، ومعها مختلف الدول العربية والإسلامية، مدعوة الى ايجاد معادلة صحيحة بين الحاكم والمحكوم في إطار علاقات الدولة والمجتمع المدني ومؤسساته، بما يعني التفتح وإطلاق التعددية، وإيجاد معادل يجمع بين قوى المجتمع الحية والدولة، كي يصبح الانتماء الى الدولة وفق منطق المواطنية القائم على التعاقد الحر، وليس وفق منطق الولاءات القبلية أو الاثنية أو الطائفية أو المذهبية.

احتجاجات أو تظاهرات الطلاب التي اتسعت لتشمل الكثير من المدن الإيرانية، تشكل مؤشرات على انعكاس سقوط نظام الاستبداد في بغداد والاحتلال الأميركي للعراق. وهي تأتي في سياق وضع إقليمي ودولي جديد، حيث التحريض والدعم الأميركيان لها واضحان. لكن، لولا الطلاب الإيرانيون الذين يتظاهرون كل يوم ضد ولاية الفقيه، وضد خامنئي تحديداً، بصفته رأس النظام، أي لو لم يكن الشارع مهيأ لاستجابة التحريض، لما تجرأ على مواجهة ميليشيا النظام، وتحطيم هيبة المرشد الأعلى للثورة والخروج عليه.

هذا الوضع الجديد في إيران يبرهن على أن إيران اليوم، بعد احتلال العراق، ليست إيران ١٩٧٩. ففي ذلك الوقت اتحدت الغالبية الإيرانية خلف ثورة تسلحت بالدين، لكن الجمهورية المتمسكة بتلابيب الثورة الإسلامية لم تعد واحدة، في ظل الصراع بين المحافظين والإصلاحيين، وفشل خاتمي في تنفيذ برنامجه، وفي ظل يافطة التخوين والتكفير التي ترفع ضد أي مطالب بالتطوير والتحديث. مع ذلك فلن ينفع التخوين والتكفير، ولا حتى عصي شرطة النظام ولا بنادق حراسه، في تفريق حشود الطلاب اليومية في الجامعات.

ومن المفارقة أن مواقف النظام الإيراني «العقلانية» من حرب أفغانستان والحرب على العراق لم تنفع في إرضاء صقور الإدارة الأميركية الحالية، كما لم يتمكن خاتمي من فعل شيء مهم طوال فترته الرئاسية، فهنالك في إيران رأس أعلى فوق الجميع، بل ودولة داخل الدولة، الأمر الذي يجعل من كل محاولة في الإصلاح أو التغيير مجرد محاولة يائسة. ولم يتجرأ خاتمي على قول ذلك، كما لم يستفد من أحداث الطلاب وتظاهراتهم في ٤ تموز (يوليو) ١٩٩٩، الأمر الذي جعل اليأس من قوى النظام محركاً لتظاهرات اليوم، حيث أحست غالبيتهم بعدم قدرة خاتمي على تنفيذ وعوده في الإصلاح، ما جعل الشاعر الإيراني يحس كذلك بوجود حال من الانغلاق المحكم، ولم يبق أمامه غير اليأس والإحباط، فقاطع الانتخابات البلدية الأخيرة، إضافة الى أن قوى النظام لم تستفد من الدرس العراقي، وبالتالي لم يجد الطلاب بدّاً من النزول الى الشارع.

تاريخياً، شارك الطلاب الإيرانيون في جل الأحداث التي حصلت في إيران، ونذكر هنا الدور المهم الذي أدوه في التغيير السياسي داخل إيران إبان عهد الشاه والثورة الإسلامية. وإن بدا اليوم حراكهم محدوداً، لكنه يمتلك أهمية خاصة للدلالة على مدى الأزمة السياسية التي يتخبّط فيها النظام، وكذلك مدى فشل الإصلاحية الخاتمية. فالإصلاح الاقتصادي انتهى الى الفشل، حيث تأزم الوضع المعيشي لغالبية السكان الى درجة صار فيها أكثر من نصفهم تحت خطّ الفقر، بينما يزداد الفساد في قطاع الدولة ومؤسساتها. كل ذلك يكشف عن عمق الأزمة التي تتحكم فيها ازدواجية السلطة، وعن حال الوصول الى الأفق المسدود الذي تقف وراءه مراكز القوى ونفوذها المتوارث من عهد الخميني.

وإن كان الجديد في تحركات الطلاب هو دعوتهم خاتمي الى التنحي عن السلطة، في حين اعتبرته جموعهم في عام ١٩٩٦ مخلصاً ومنقذاً من سلطة «ولاية الفقيه»، فإن دعوتهم اليوم تعبر عن الوصول الى حال من اليأس وخيبة الأمل، وبالتالي فهي دعوة للتجاوز. لكن في ظل غياب برنامج واضح المعالم للتغيير، فإن حركة الطلاب والشارع في إيران ستظل مفتوحة على احتمالات كثيرة، وسيتوقف عليها في المدى القريب الوضع السياسي في إيران، خصوصاً مع تزايد الضغوط الأميركية. ومع ذلك فإن المخاض الذي تمر به إيران اليوم يدعو الى التأمل والوقوف طويلاً أمام حال الانقسام في السلطة وما تستتبعه من إرهاصات مجتمعية، ولن يجدي نفعاً أي حل لا يفضي الى الديموقراطية، والى التوافق الاجتماعي والسياسي في ظل التعددية وإطلاق العنان لقوى المجتمع الحية في التعبير عن نفسها.

* كاتب سوري.

اسرائيل وباكستان واستهداف العالم الإسلامي

عبد الله الاشعل *

■ لم يكن خافياً على المتابعين، خلال الحملة الأميركية على أفغانستان، أن إسرائيل لها مخططها العام لتقويض العالم الإسلامي. وفي داخل المخطط تقبع الرغبة القديمة المبيتة لدى إسرائيل، وهي حرمان باكستان من سلاحها النووي، حتى تعتمد إعتماداً كاملاً في أمنها، الذي تهدده الهند، على تحالف جديد يضم الولايات المتحدة وإسرائيل والهند مقابل إلغاء دور باكستان في العالم الإسلامي، وتقويض أركان هذا العالم واحداً واحداً، وهو الذي كان سنداً قوياً لقضية القدس ولحقوق الشعب الفلسطيني. وتقف في مقدم هذه الأركان باكستان خصوصاً، بصفتها دولة نووية، تليها إيران ثم أندونيسيا وماليزيا، وكلها دول، كما نرى كل يوم، تستهدفها إسرائيل مستعينة بشهر العسل الطويل بينها وبين الولايات المتحدة.

أما كيف تحتوي إسرائيل باكستان، فقد تجلت مظاهره العديدة في الكثير مما رصده المراقبون، إذ بدأت إسرائيل بتكثيف الضغط على باكستان قبل حملة أفغانستان وإدخال التعاون الباكستاني - الأميركي في جزء منه، طرفاً في «تهذيب موقف باكستان». وكان الشكل الثاني، هو التحالف الإستراتيجي مع الهند، على أساس مساندة الهند في قمع مسلمي كشمير، والقضاء على حركة المقاومة فيها، ونقل الخبرة الإسرائيلية في قمع الفلسطينيين إلى الهند. وأوجدت إسرائيل أرضية مشتركة للتحالف، قوامها مساعدة الهند في التصدي للمشكلة الكبرى التي تكيف حياتها في الداخل والخارج، وهي مشكلة كشمير، والمواجهة مع باكستان، وفي الوقت نفسه تطوير الأسلحة، خصوصاً البرامج النووية.

أما الشكل الثالث والأخطر، والذي نشهد الآن ثماره، فهو القضاء على معالم الموقف الباكستاني التقليدي من الدين والدولة، ولذلك لا نبالغ إذا قلنا ان إسرائيل والولايات المتحدة فكرتا طويلاً في كيفية إختراق باكستان إختراقاً جذرياً، بعد أن ضمنتا تعاون الرئيس برويز مشرف التام وقدرته على قمع أي معارضة إسلامية لسياساته، وهو نجح في ذلك خلال الحملة الأميركية على أفغانستان، وعرف حدود التأثير وقدرات المعارضة، وقدم للشعب الباكستاني ما اعتبره الخيار الأفضل للمصلحة العليا الباكستانية، وهو أمر لا ينازع فيه أحد خارج باكستان، ولا نظن أننا بهذه المقالة نتدخل في ما يعد شأناً باكستانياً خالصاً، ولكننا نرصد النذر ونستبطن ما لم يعد بحاجة إلى الكثير من الذكاء لنعرف إلى أين تمضي القضايا الكبرى في العالم الإسلامي من خلال الإستهداف المنظم لأركان هذا العالم، وقضمه ركناً ركناً، وكلٌ يعتقد أنه يجب أن يتسم بالمرونة، وألا يقف في وجه الطوفان، وهو لا يدرك أنه قد دخل فعلاً في قلب الطوفان في خطة الإحتواء الباكستاني، بسبب ما تمثله باكستان في العالم الإسلامي، ورغبة إسرائيل في حرمان هذا العالم - كما تقول هي نفسها - من قنبلته الإسلامية، دفعتها إلى التركيز النهائي الآن بقطف ثمار سياستها الدؤوبة والنشطة في مواجهة الدول الإسلامية الكبرى، وقد انكفأت على داخلها وانشغلت في قضايا لا تقدم الكثير لخير شعوبها.

والحق أن باكستان واجهت الكثير من المصاعب والتحديات من الداخل والخارج، وحاول الباكستانيون التطلع إلى العالم العربي ليتساند الطرفان، فيؤيد هذا العالم باكستان ضد الهند، وتؤيد الهند هذا العالم ضد إسرائيل، على رغم أن التحالف الأميركي الباكستاني كان ركيزة أساسية منذ نشأة باكستان، وعلى رغم الاختلافات والتناقضات، واعتماد واشنطن على باكستان اعتماداً مطلقاً مرتين على الأقل، حين تعلق مصير الهيبة الأميركية كلية بباكستان، الأولى هي عند مناهضة السوفيات في أفغانستان، في ما عرف في ذلك الوقت بفيتنام السوفياتية، التي أسهمت - ضمن عوامل أخرى - في الإجهاز على الإمبراطورية السوفياتية، منتهى أمل الولايات المتحدة. وكانت المناسبة الثانية، عندما قررت واشنطن القضاء على نظام «طالبان» في أفغانستان العام ٢٠٠١، وهو في الواقع جزء من رؤية أميركية أوسع لسياساتها في آسيا والشرق الأوسط.

فما هي دوافع التركيز الإسرائيلي الآن على باكستان وما هي احتمالات نجاح إسرائيل في ذلك؟

تهدف اسرائيل إلى تحقيق خمسة أهداف في باكستان، أولها: زعزعة أركان العالم الإسلامي المؤيد للقضية الفلسطينية بعد أن نجحت إسرائيل في تحييد العالم العربي، وثانيها: إقامة تحالف باكستاني - إسرائيلي - هندي - أميركي يقف على قاعدة مشتركة ويخدم هامشاً ضخماً من المصالح الجديدة أغلبها أميركي إسرائيلي، ثم هندي وهو احتواء القضية الكشميرية، واستئناس المجتمع الباكستاني وتطويره، مثلما توضع الخطط لتطوير العالم العربي. فيما تضمن باكستان في المقابل إنهاء الصراع مع الهند على حساب كشمير، وضمان بعض المعونات الأميركية، وربما توقي أي انتقادات أميركية للتطورات الداخلية في باكستان. وأما الهدف الثالث: فهو فك الإرتباط بين باكستان والعالم العربي، وتمزيق العالم الإسلامي، وتمييع الطابع الإسلامي للدولة، وهو ما أصبح سياسة أميركية عالمية تمارسها ضد السعودية وباكستان وأندونيسيا وغيرها.

والهدف الرابع: هو تطويق إيران باعتبارها الهدف المقبل في ما يبدو، إذ تزداد الضغوط عليها من كل جانب، ما دامت هناك شبهة في أن لديها قوة عسكرية تناقض المخطط الإسرائيلي - الأميركي القاضي بأن حكومة إسرائيل وحدها المسلحة القادرة تجعل أمن الجميع تحت رحمتها. وقد قطعت إسرائيل شوطاً كبيراً في ذلك في وقت أصبحت إيران فيه وحدها في الميدان في شكل يختلف عما حدث لها خلال الحرب الإيرانية - العراقية، ما يعطي مؤشراً بأن إيران بعد حصارها من كل جانب. واستحكام الحصار باحتواء إيران يختلف عن ظروفها في الثمانينات خلال صدها للعدوان العراقي عليها لمدة ثماني سنوات. والهدف الخامس: هو حرمان باكستان من قدراتها النووية وعلمائها وقاعدتها العلمية بتصوير الأمر لها وهماً وطعماً تلتقمه راضية، وهو أن القنبلة النووية مرتبطة بالمواجهة مع الهند، وبعد زوال مبرر تسلحها، فلا داعي للتسلح أصلاً، والتفرغ بدلاً من ذلك للتنمية وإعادة صوغ المجتمع. وبطبيعة الحال، لن يلتفت إلى أي حجة باكستانية تطالب بنزع السلاح النووي الهندي الذي كان الصراع مع باكستان أيضاً هو مبرر وجوده، بل إن التسلح الباكستاني كان رداً على التسلح الهندي. إن استهداف باكستان هو جزء من مخطط أكبر لاستئناف العالم الإسلامي والعالم العربي، وإنهاء القضية الفلسطينية بالشكل الذي يرضي إسرائيل. ولا شك في أن الدعم الأميركي المطلق لهذا المخطط لم يعد بحاجة إلى خفاء، فالرئيس بوش أعلى صوتاً من إسرائيل بالمطالبة بالقضاء على «حماس» وتصفيتها، على رغم تأكيد إسرائيل باحترامها للهدنة معها، كما أنه لم يكن مصادفة ان أعلن برويز مشرف - وهو في زيارة لواشنطن في الاسبوع الأخير من حزيران (يونيو) ٢٠٠٣- عن أنه يبحث الطلب الأميركي بإقامة علاقات ديبلوماسية مع إسرائيل.

وقد يسأل سائل، ولِمَ لا تقيم باكستان مع إسرائيل علاقات ديبلوماسية ما دام ذلك في مصلحة باكستان، كما تراه قيادتها، تماماً كما رأت القيادات العربية في مصر والأردن وغيرها اهمية مثل هذه العلاقات ولم تعترض باكستان في ذلك الوقت؟

ظاهر السؤال يغري بإجابة أسهل، ولكن السؤال لا يتعلق بالاعتراض أو الموافقة على هذه الخطوة، فالأمر يتعلق بنظرة استراتيجية كانت ولا تزال واردة بالنسبة الى الدول العربية، ونعتقد أن إدارة عملية السلام اتضح أنها أخطر من إدارة الصراع حتى في ميدانه العسكري، إذ استفادت إسرائيل من الجو الذي أشاعته بعد مدريد ١٩٩١، وأوسلو ١٩٩٣، فحصلت على علاقات طبيعية مع كل دول العالم، ثم عرقلت عملية السلام، فعادت العملية أدراجها، بينما هي تتقدم على جميع الساحات.

والموازنة بين توثيق العلاقات الإسرائيلية - الباكستانية، لا يجب أن تتم بين الكاسب والخاسر في باكستان أو العالم العربي، لأن الكل خاسر في الحالين، ما دامت معركة إسرائيل مع العالم العربي دفعتها إلى أن تمد بصرها صوب العالم الإسلامي، من ناحية، لكي تقوم بتفكيك العلاقة بين العالم الإسلامي والعالم العربي، وهي علاقة بدأت منذ قيام إسرائيل، ومن ناحية أخرى حرمان العالم العربي من الطبقات الحامية لمواقفه وقضاياه في مواجهة إسرائيل، وأخيراً لتطويق العالم العربي في واحدة من أهم دوائر أمنه، وهي الدائرة الإسلامية، بدلاً من أن يعمل العالم العربي على تعزيز أمنه. فتضمن إسرائيل بذلك إنتهاء فاعلية منظمة المؤتمر الإسلامي، مثلما تسببت في إجهاد الجامعة العربية وتفاقم أزمتها.

ونحن نعتقد أن إسرائيل ستنجح في إقامة العلاقات الديبلوماسية مع باكستان، وغيرها، وربما نجحت أيضاً في تنفيذ مخططها ودوافعها الخمسة التي أشرنا إليها، والعالم العربي يبدو وكأن الأمر لا يعنيه. فإذا أطبقت إسرائيل عليه من كل صوب وبدأ يدرك بعد فوات الأوان أن العالم الإسلامي تحول من بُعد إستراتيجي إلى حلقة حصار له، فسيكون هذا الإدراك بلا فائدة. وقد يقول قائل، وهل إسرائيل في حاجة إلى علاقات ديبلوماسية حتى تنفذ مخططها، وهي تملك الآن أدوات العمل في باكستان من خلال الولايات المتحدة؟ ونقول إن هناك فرقاً كبيراً بين أن تعمل إسرائيل في العلن، وبين أن تعمل سراً من خلال الولايات المتحدة، لأن إقامة علاقات ديبلوماسية مع باكستان سيفتح الباب إلى علاقات ديبلوماسية مع غيرها.

* كاتب مصري

ألف وجه ألف عالم

«صورة دوريان غراي» لأوسكار وايلد: الفن أو الحياة؟

■ «ثورة القرن التاسع عشر على الأدب الواقعي هي ثورة كاليبان حينما يرى وجهه في المرآة. وثورة القرن التاسع عشر على الأدب الخيالي هي ثورة كاليبان حينما لا يرى وجهه في المرآة. الحياة الأخلاقية تمثل بعض مادة الفن. ولكن أخلاقية الفن تأتي من كمال التعبير على رغم نقص أداة التعبير. ما من فنان يريد اثبات نظرية ما، فالحقائق وحدها هي التي يمكن اثباتها(...). أداتا الفن: الفكر واللغة. ومادتا الفن: الفضيلة والرذيلة(...). للفن ظاهر مكشوف ورمز خفي. من يتجاوز الظاهر يجازف بكل شيء، ومن يفهم الرمز يجازف بكل عزيز. الفن ليس صورة الحياة، بل صورة ذاك الذي يستعرض موكب الحياة...». بهذه العبارات، بين عبارات أخرى مماثلة، قدم الكاتب أوسكار وايلد في العام ١٨٩١، لأول طبعة في كتاب ظهرت لروايته التي كان نشرها في مجلة أميركية قبل ذلك بعام، وهي روايته الأولى والأخيرة «صورة دوريان غراي»، فهو، إذ كتب المسرح والشعر والنقد، لم يكن كبير الاهتمام بالفن الروائي كما يبدو. بل حتى حينما نشرت هذه الرواية قال نقاد كثر أن موضوعها ليس جديداً، مذكرين بأعمال لهونوريه دي بلزاك وادغار آلن بو، تماثلها موضوعاً وسابقة عليها. لكن وايلد لم يأبه لمن قال هذا، إذ إن غايته لم تكن كتابة رواية، بل توضيح فكرة ومذهب في الفن... وربما أيضاً التعبير عن ذاتيته التي كانت شديدة الحضور في حياته، وكذلك تقديم صورة سلبية عن الزمن الفكتوري الذي كان يناهضه بصفته واحداً من كتاب «عصر الانحطاط الانكليزي». ويقيناً ان أوسكار وايلد نجح في مراميه هذه كلها، من خلال هذا العمل الفذ، هذا العمل الذي أراد، أولاً وأخيراً، أن يثبت من خلاله أن ليس ثمة بين الكتب، كتب أخلاقية وكتب منافية للأخلاق... لأن الكتب إما أن تكون جميلة التأليف وإما رديئته.

● تحدثنا هذه الرواية، التي اعتبرها كثر حكاية فلسفية، أكثر منها رواية أدبية، عن دوريان غراي، الشاب الثري والفائق الحسن الذي آلى على نفسه أن يعيش حياته مبجّلاً للذ والجمال، بمعناهما الأكثر رومانطيقية. وذات يوم يهديه صديقه الرسام بازيل هالوارد لوحة رسمها له، وقد عبرت خير تعبير عن جماله وشبابه وبهائه. وأمام مرأى صورته على هذه اللوحة يحس دوريان بغصة وبألم إذ واتته أفكار عن المرور السريع للزمن، هذا الزمن الذي يعجل عادة بمجيء الشيخوخة، مدمراً شبابنا وجمالنا. وهنا يعبر دوريان عن أمنيته بأن يحفظ الزمن له جماله وشبابه كما هما، وأن تتحول شيخوخته الى ملامح صورته. فتشيخ اللوحة مكانه حاملة كل آثار الحزن والعنف والرذيلة التي كان يجب أن تحملها ملامحه الخاصة. وتتحقق له أمنيته، بمعجزة ما، إذ ان اللوحة التي يخبئها دوريان غراي في مكان سري من قصره، تحمل عنه كل الأعباء وتعكس على ملامحه فيها جرائمه ورذائله ومرور الزمن، أما هو فإنه يبقى شاباً جميلاً بهياً مدهشاً. وهكذا يقيض لدوريان غراي أن يعيش حياته كما يحلو له، ينصرف الى ملذاته، مع صديقه اللورد هنري ووتون، المتهكم الذي - هو - يشعر بوطأة الزمن بالطبع مدهوشاً دائماً أمام صديقه الشاب أبداً والجميل على الدوام. ودوريان لفرط انصرافه الى أنانيته، يتجاهل حتى حب خطيبته سيبيل له. انه لم يعد راغباً في حب هذه المرأة التي ستعبر سريعاً في حياته، ولم يعد راغباً في ضعفها وهشاشتها وخوفها الدائم على حبهما... وهكذا يتخلى عنها من دون رأفة دافعاً اياها الى الانتحار. أما صديقه الرسام بازيل، الذي يرصد سلوكه ورذائله ويبدأ يحدثه عنها حديث اللائم، فإن مصيره يكون القتل على يدي دوريان، حينما يقيض له أن يرى اللوحة المخبوءة... ويذهل أمام التطور الذي راح يصيب هذه اللوحة. والحال أنه منذ انتحرت سيبيل ودوريان غير مبال بانتحارها، ظهرت أول ملامح القسوة على شفتي دوريان في اللوحة... ثم بالتدريج بدأ الوجه يحمل علامات تعكس تطور حياة دوريان غراي. وكانت تلك هي اللحظة التي شاهد فيها بازيل، راسم اللوحة، نتيجة ذلك على هذه الأخيرة. فلا يكون من دوريان، في لحظة رعب هستيرية، إلا أن يقتل بازيل، وبسرعة تعكس اللوحة مشاعر دوريان ازاء الجريمة التي اقترفها. وهنا يبدأ دوريان بالقلق إذ ان اللوحة تبدأ بتذكيره بالخدعة التي يعيش فيها، مزدوج الحياة... وتضع له اللوحة أمام ناظريه وجهه الحقيقي، البشع والعجوز والذي لا يعرف عنه الآخرون شيئاً. وإذ تتصاعد مشاعر القلق والرعب والجنون داخل دوريان كلما نظر الى اللوحة أكثر وأكثر... يشعر أن هذه اللوحة، لا وجهه الشاب، هي حقيقته، وينتهي به الأمر الى طعن اللوحة بالسكين راغباً التخلص منها، فإذا به يسقط هو ميتاً وكأنه وجه الطعنة الى نفسه، مطلقاً صرخة كانت من القوة الى درجة انها ايقظت الخدم الذين هرعوا مرعوبين ينظرون الى ما يحدث. وفي تلك الأثناء حاول شرطي دخول البيت لكنه تراجع «وفي داخل البيت كان الخدم المذعورون في ملابس النوم يتهامسون، وكانت مديرة البيت العجوز مسز ليف تبكي وتعصر يديها عصراً، وكان الخادم فرنسيس شاحباً شحوب الأموات. وبعد ربع ساعة خف الحوذي وأحد الخدم الى فرنسيس وصعدوا جميعاً الى الغرفة العليا بخطى واجفة، وطرقوا الباب فلم يجبهم مجيب، وحاولوا أن يقتحموا الغرفة عنوة ولكن الباب كان عنيداً. فلما يئسوا تسلقوا الى السطح ومنه الى الشرفة ودفعوا النوافذ فلانت مزاليجها البالية» فماذا رأوا؟ «وحينما دخلوا الغرفة شاهدوا على الحائط صورة رائعة لسيدهم، وقد سجلت جماله الفذ وشبابه الناضر. وعلى الأرض شاهدوا رجلاً ميتاً في ثياب السهرة وقد غارت في قلبه مدية. وكان الرجل مغضّن الوجه يابس البدن كريه الملامح. ولم يتبينوا هويته إلا بعد أن فحصوا الخواتم التي كان يلبسها». ان الحياة، في نهاية الأمر، الحياة وواقعها مهما كان شأنه، كان هما من انتصر على دوريان غراي وعلى أمانيه.

● حينما نشرت رواية «صورة دوريان غراي» كان لها صدى كبير وضجة صاخبة. من ناحية بسبب موضوعها، الذي كان جديداً - على رغم السوابق التي تحدثت عن موضوع ازدواج الشخصية - ومن ناحية ثانية وأهم، لأنها أتت لتوقظ فضول الجمهور الذي «في وجود وصورة دوريان غراي المملوءين بالرذائل، أراد أن يرى صورة لأوسكار وايلد نفسه» كما قال النقاد. وفي الأحوال كلها اعتبرت هذه الرواية الأكمل والأقوى بين كل ما انتجه أدب الانحطاط الانكليزي في ذلك الحين، أي خلال العصر الفكتوري الذي كان من الواضح أن أوسكار وايلد انما أراد أيضاً أن يجعل من هذه الرواية واقعة عنيفة وجريئة ضده، وضد آدابه البورجوازية التي كانت تريد لنفسها أن تكون وعظية تعليمية دون هوادة.

● والحقيقة ان هذا كله كان صحيحاً. فأوسكار وايلد (١٨٥٤ - ١٩٠٠) انما أراد من هذه الرواية - حتى وان طغى عليها تيار مذهب الفن للفن - ان تكون سلاحاً آخر في المعركة العنيفة التي كان يخوضها ضد الملكة فكتوريا، «غريمتي الكبرى» كما كان يقول، وضد عصرها المتزمت، مؤكداً ان الحدود التي تفصل بين الخير والشر حدود واهية، كما ان الحدود التي تفصل بين الفن والحياة، لا يمكن لها إلا أن تكون حدوداً مصطنعة. ووايلد عرف بجرأته ومعاركه التي خاضها، وخصوصاً بمسرحياته التي طالما عانت من مشكلات مع الرقابة الفكتورية وغير الفكتورية، ومنها «مروحة الليدي وندرمير» و«سالومي» و«أهمية أن تكون جاداً» و«الزوج المثالي» وغيرها.

ابراهيم العريس